وليم كلي رايت

تاريخ الفلسفة الحديثة

ترجمة
محمود سيد أحمد

تقديم ومراجعة
إمام عبد الفتاح إمام

الفصل الرابع عشر

هيجل

١ ـ حياته وشخصيته

تطور فكر جورج فلهلم فردرش هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) F.W.F. Hegel، أعظم فيلسوف ألماني منذ كانط، ببطيء أكثر من فشته أو شلنج، ربما لأنه كان أكثر دقة؛ وعلى أية حال، فقد نجح في النهاية في أن يقدّم للعالم نسقًا من المثالية أكثر معقولية وشمولًا. ينحدر هيجل من أسرة من طبقة أعلى من المتوسطة كانت تعيش في «شتوتجرت». وعندما كان طالبًا مع شلنج في معهد «توبنجن»، كان يبدو أنه واعد ولكن بدرجة أقل من شلنج، على الرغم من أنه كان أكبر منه بخمس سنوات. وبعد أن ترك الجامعة، عمل مدرسًا خصوصيًا متواضعًا خلال السبع سنوات بين عام ١٧٩٤ وعام ١٨٠١، التي أصبح أثناءها شلنج مشهورًا. وجاء إلى «بينا» عام ١٨٠١ كمعلم. وعاون شلنج في تدعيم موقفه الفلسفي، فقام شلنج بمساعدته بطرق كثيرة. بعد أن ذهب شلنج إلى «فورتبورج»، ظل هيجل في «بينا»، وحصل على الأستاذية في عام ١٨٠٥ . وأصبح الآن على استعداد لأن ينسلخ عن شلنج، الذي سخر منه عندما قدّم وجهات نظره عن العالم في كتابه «فينومنولوجيا الروح». وكان هيجل يقدر هذا الكتاب تقديرًا كبيرًا من حيث إنه أكثر كتبه أهمية، على الرغم من واقعة مؤداها أنه كان مضطرًا إلى أن يكمل أجزاءه الأخيرة المهمة بسرعة، ويدفع بالمخطوطة إلى صاحب المطبعة قبل حرب بينا عام ١٨٠٦(*).

واختل النظام في الجامعات، بعد تلك المعركة، التي جلبت الخراب على الألمان. وفقد هيجل أستاذيته، واضطر إلى أن يعول أسرته بقدر ما يستطيع، فعمل لمدة سنتين رئيسًا لتحرير إحدى الصحف اليومية(**)، ولمدة ست سنوات ناظرًا في إحدى مدارس البنين.

(*) هذا هو المبرر الذي يسوقه هيجل تفسيراً لصعوبة كتابه «ظاهريات الروح» لكنه ليس صحيحاً على الإطلاق، بل أن السبب الحقيقي هو أنه كان يمر في هذه الفترة بأزمة مالية طاحنة، في الوقت الذي رفض فيه الناشر أن يعطيه المبالغ المتفق عليها قبل أن يتسلم بقية الكتاب ـ وكان يرسله بالبريد على دفعات ـ ومع دقات طبول الحرب أصبح هيجل في مأزق حاد فاضطر أن يكمل الكتاب على عجل. طالع القصة بالتفصيل في الدراسة المطولة التي صدرنا بها ترجمتنا العربية للظاهريات (المراجع).

(**) في رواية أخرى أنه عمل لمدة عام واحد رئيساً لتحرير صحيفة «بامبرج» اليومية (المراجع).

وبالرغم من اضطرابات تلك السنين، فإن هيجل استمر فى العمل بمثابرة، وأكمل بحثه الأكثر إحكامًا وهو «علم المنطق» (يشار إليه غالبًا بـ «المنطق الكبير)[*]. وقَبِلَ فى عام ١٨١٦ الأستاذية فى جامعة «هيدلبرج»، حيث نشر بيانًا شاملًا لمذهبه، أعنى «الموسوعة» (التى تتكون من «المنطق الصغير»، و«فلسفة الطبيعة»، و«فلسفة الروح»). واستدعى فى عام ١٨١٨ إلى برلين بوصفه «الرجل الذى يستطيع أن يملأ بجدارة كرسى الفلسفة الذى كان شاغرًا منذ وفاة فشته»[١] وأثناء إقامته فى برلين نشر كتابه «فلسفة الحق»، وألقى سلسلة من المحاضرات العديدة (التى نُشرت بعد وفاته)، طبق فيها منهجه على تفسير التاريخ، والفنون الجميلة، والدين. واحتفظ بقيادة الفكر الفلسفى فى ألمانيا حتى وفاته نتيجة لإصابته بوباء الكوليرا عام ١٨٣١ .

وكانت شخصية هيجل غير عادية فى بعض الجوانب. فعندما عارض أسلافه المباشرين مثل فشته، وشلنج، كان يبدو موضوعيًا بصورة لافتة للأنظار. ولم يعمل مبشرًا مثل فشته، ولم ينغمس فى شطحات سارة مثل شلنج والرومانسيين الآخرين. وكان همه الوحيد أن يفهم العالم كما هو، وأن يفسر كل شىء تفسيرًا منطقيًا. ومن الصواب أن نقول إن محاضرات برلين، كشفت عن استبصار ملحوظ فى جوانب الحياة التى هى بطبيعتها وجدانية إلى حد كبير، مثل الفن، والشعر، والدين. ولم يكن فى استطاعته أن يفهم تلك الجوانب فهمًا جيدًا كما فعل، إذا لم يكن قد خبر مشاعر الآخرين. غير أن ذلك لم يظهر فى كتاباته أبدًا على الإطلاق. فهو يصف تجارب النفس الداخلية بنزاهة كما يفعل العالم الذى يصف. وهناك وجه آخر من شخصية هيجل، لابد أن نذكره عابرين، وهو ولعه بالمفارقات. فمنذ طفولته وما بعدها، كان مزاجه الجاف يستمتع بلفت الانتباه إلى حقائق ووقائع تبدو غير متسقة، مع إنها يجب أن تقبل ويتم التوفيق بينها بطريقة ما[٢].

وربما كان هيجل أعظم الفلاسفة ثقة بنفسه، فقد كان على يقين أنه فسَّر البناء الروحى للكون تفسيرًا مقنعًا. وحتى الله، كما لوحظ، لم يسمح له ـ فيما يبدو ـ بأية أسرار يعجز عقل هيجل عن كشفها. ومع ذلك، فنادرًا ما يثير هيجل ذلك النوع من العداء الذى أحدثه فشته فى بعض القراء. ولم يتحدث هيجل عن نفسه أبدًا؛ وإنما يضع أمامنا مسار الواقع بهدوء على نحو ما يعتقد أنه كذلك بالفعل، دون الكشف عن أى أهواء شخصية أو أحكام

(*) تمييزاً له عن «المنطق» الصغير الذي هو الجزء الأول من موسوعة العلوم الفلسفية (المراجع).

مبتسرة أو عواطف. ويعتقد المعجبون بهيجل حتى اليوم أنه وصل إلى قمة التفكير الفلسفى: إذ يظهر لأول مرة فى التاريخ غرض مقنع «للفلسفة الكلية» التى تقدم نحوها الفلاسفة السابقون جميعًا ببطء شديد[٣]. فعلى حين أنهم سلموا بأخطاء عارضة فى صياغة هيجل، ولفتوا الانتباه إليها، فقد أصروا على أن نتائجه الأكثر أهمية ستبقى طوال الزمن الحقيقة النهائية فى الفلسفة. الهيجليون، من جانبهم، متسامحون ومتعاطفون، على الرغم من تصنعهم إلى حد ما؛ فكل فلسفة أخرى تحتوى على قدر ملحوظ من الحقيقة ولا تحتاج إلا أن تكمل نفسها، وتُصحح فى الضوء الكامل للمطلق أو فى المثالية الموضوعية عند الهيجليين.[٤]

٢ ـ المفاهيم الأساسية

يتفق هيجل مع فشته وشلنج على أن الواقع النهائى، أو الكون، هو روح مطلق، أو روح، تمرخلال مراحل من التطور فى الزمان، وتصبح واعية بنفسها فى العقل البشرى، مع إن هذا المطلق لا زمانى، وأزلى، ويشمل كل شىء، ومكتمل بذاته. ويزعم هيجل أنه يبين عن طريق منهجه المنطقى (الذى يسميه بالجدل) كيف يرتبط كل شىء من حيث المبدأ بكل شىء آخر ويساعد فى تكوين ذلك الكل الواحد. ولا يسير منهج البرهان عند هيجل فى خط مستقيم على نحو ما يفعل المنهج عند ديكارت، إذ أنه لم يبدأ بقضية بسيطة لا يمكن الشك فيها، ويحاول أن يبرهن على كل خطوة متتابعة فى حجته العظيمة بطريقة رياضية. وإنما النسق عنده هو نسق تضمينى؛ بمعنى أن كل طور من أطوار الحجة يتضمن بقية الحجة كلها. وهذا الاعتماد المتبادل بين جميع التفصيلات وشمول التفسير الذى يكون فيه كل شىء متضمنًا بلا التباس أو عدم اتساق فى أى مكان يبرهن على حقيقة النسق ككل. والنسق الذى يتم فيه تفسير كل شىء بطريقة واضحة ومتسقة لابد أن يكون صادقًا. لأن «الحقيقة هى الكل». إن الحجة فى كل مكان عقلية، لأن «الواقعى عقلى»، و«العقلى واقعى».

المذهب الهيجلى محكم للغاية حتى إننا لا نستطيع أن نتعقبه فى كل تفصيلاته فى فصل واحد. ولا نستطيع هنا سوى أن نشير إلى بعض المفاهيم الأساسية، ومنهج البحث، وبعض النتائج التى وصل إليها هيجل. ولا يمكن أن ينصف هذا التفسير المختصر شمول

المذهب وعمقه، ولا أن ينصف عمق النظر فى تفصيلات متنوعة ذات قيمة أثنى عليها كثيرون حتى ممن لم يقبلوا المذهب بأسره. ولكى نصل إلى فهم كاف لهيجل، لابد من قراءة أعماله الخاصة فى ضوء التعليقات، وكثير منها ممتاز (انظر المراجع فى نهاية هذا الفصل).

وأحد المفاهيم الرئيسية عند هيجل هو تصور «علاقة الكل بأجزائه». إن أى جزء من الكل هو على ما هو عليه بفضل علاقته بالنسق ككل وبالأجزاء الأخرى. وربما نلاحظ ذلك بصورة أكثر وضوحًا فى الكائنات الحية. ففى أى كائن حى، يكون كل عضو على ما هو عليه لأنه جزء من كل . ولا يمكن أن ينشأ جزء أو يبقى إذا لم تدعمه الأجزاء الأخرى ويساعد هو فى تدعيمها. (وهذا التفسير للكائنات الحية، الذى ربما يدين به هيجل لأرسطو، الذى يدين له بطرق كثيرة، هو تفسير صحيح، على الرغم من أنه قد يكون فى نبات ما أو حيوان ما أجزاء قليلة ليس لها فائدة أو حتى أجزاء ضارة مثل الزائدة الدودية فى الإنسان، وقد أهمل هيجل هذه الاستثناءات). وقد مدَّ هيجل مفهوم العلاقة بين الأجزاء والكل فى الكائن الحى إلى كل حقيقة وواقع. فكل حقيقة أو واقعة Fact تعتمد على حقيقة أخرى أو واقعة أخرى، وتساعد بدورها فى تحديدها. وقد عُرف هذا المذهب منذ عصر هيجل «بالنظرية العضوية للحقيقة والواقع»، (لأن كل شىء محدد تحديداً داخليًا عن طريق علاقاته بكل شىء آخر) من حيث إنه يعارض المذهب المقابل وهو «تخارج العلاقات»، الذى نجده عند لوك.

وينتج عن ذلك التصور أن أى كل عضوى هو أكثر من مجرد المجموع الرياضى لأجزائه. ومن الواضح أن تلك هى الحال فى حياة النباتات والحيوانات. وعمل الفن الناجح هو أيضًا كل عضوى بالمعنى الهيجلى. لأنك لا تستطيع أن تفهم معنى صورة ما ببساطة عن طريق تحليل التركيب الكيميائى للقماش والألوان المختلفة، مع أنها أساسية ولا يمكن أن توجد الصورة بدونها. ولا تستطيع أن تقيّم الرسم عن طريق دراسة كل صورة بذاتها. إن لكل صورة علاقة فنية بالباقى، فهى جزء من كل واحد، والدلالة الحقيقية لهذا الكل ليست مجرد إضافة لأجزاء مختلفة. ومع إن الكل ليس شيئًا منفصلًا عن الأجزاء، موجوداً بصورة مستقلة؛ بل هو ببساطة تلك الأجزاء مأخوذة معًا فى وحدتها. ويحدد الكل من الناحية المنطقية طبيعة كل جزء. وإذا كان الفنان ناجحًا، فإن كل تفصيل فى اللوحة التى رسمها، يساهم فى الكل الذى تصوره من قبل. إن الحقيقة الواقعية، أو المطلق،

كل لامتناه، مكون من أجزاء متناهية، كل جزء يساهم فى الكل ويتحدد بواسطته.

ودعنا نقترب من تصور هيجل للمطلق بطريقة أخرى. خذ أى لحظة معينة فى حياتك الواعية ـ ولنقل اللحظة الحاضرة. هب أنها منعزلة عن كل اللحظات الأخرى ـ أى أنك لا تتذكر ولاتحتفظ بأى شىء من خبرته السابقة. فى ظل ظروف كهذه، فإن إحساسات اللحظة الحاضرة لا تعنى شيئًا على الإطلاق بالنسبة لك. إن اللحظة الحاضرة، التى تحاول فيها أن تفهم خاصية من خصائص فلسفة هيجل، لا يمكن أن يكون لها معنى بالنسبة لك إلامن حيث إنها مرتبطة ارتباطًا عضويًا بما تعلمته فى لحظات ماضية بحيث تلقى ضوءًا على اللحظة الحاضرة، بينما تلقى عليها ضوءًا إضافيًا. إن كل خبرة من خبراتك طوال حياتك الواعية بأسرها هى جزء من كل يتضمن خبراتك الماضية، ويعدّ الطريق لخبراتك فى المستقبل. ولا تكون شخصيتك ما تكون عليه فى أى لحظة حاضرة، مأخوذة بذاتها، لأن ما تكون عليه هو حياتك مأخوذة بوصفها كلًا عضويًا باستخدام مصطلح هيجل(٥).

غير أننا لا نستطيع أن نتوقف هنا. فأنت نفسك ترتبط بأشخاص آخرين بطرق كثيرة. فلابد أن يكون لك أب وأم، لأنك تدين بوجودك لهما، وبالإضافة إلى السمات التى ورثتها منهما من الناحية البيولوجية، فأنت تدين لهما بقدر لا يحصى فى أمور أخرى. وأقاربك المتنوعون الآخرون، ومدرسوك، وزملاؤك فى اللعب، وأصدقاؤك لهم تأثير عليك، وقد ساعدوا فى أن يجعلوك على النحو الذى أصبحت عليه. وربما تكون الآن طالب جامعة. ومن حيث إنك كذلك، تكون لك علاقات كثيرة بطلاب آخرين ـ علاقة بفصلك، وبأخوتك، وبالنوادى، وبالفرق الرياضية، وبمنظمات طلابية أخرى تنتمى إليها، بالإضافة إلى أعضاء متنوعين فى الكلية. كما أنك تتطلع بعد التخرج إلى إقامة علاقات مع أشخاص آخرين لا حصر لهم فى العمل أو الوظيفة. ومن ثم، ما الذى ترتبط به الآن، من حيث إنك فرد ومنفصل عن جميع الأشخاص الآخرين الذين ارتبطت بهم فى الماضى، وتتوقع أن يرتبط بك فى المستقبل؟ إنك تتألف عن طريق أشخاص آخرين ومجموعات من الأشخاص ترتبط بهم، وأنت بدورك تساعد فى تكوينهم. وفضلًا عن ذلك، فإنك وكل الأشخاص الآخرين الذين يكونون الجنس البشرى ترتبطون بالكوكب الذى نعيش عليه، وتكون أرضنا هذه مشروطة بكل جرم سماوى آخر فى الكون، وتساعد بدورها فى أن تكون شرطًا لكل جرم سماوى آخر.

وربما نتوقف وننظر إلى النتائج التى وصلنا إليها الآن. إن كل لحظة فى تجربتك

الواعية جزء عضوى من حياتك من حيث إنها كل. وتكون حياتك من حيث إنها كل مشروطة بالمجتمع البشرى. والمجتمع البشرى مرتبط بالأرض. والأرض جزء عضوى من الكون بأسره. وكل منا جزء عضوى منه. وهذه الحقائق تعرفها أنت وأنا ـ وهو يقول يمكن أن يُعكس ليعنى أن الكون، أو المطلق يصبح واعيًا بذاته وبعلاقاته الداخلية بداخلنا؛ لأننا أجزاء منه. إننا لا نتصور المطلق على أنه شىء موجود فى الزمان سابقًا على العالم وينتقل لخلقه؛ لأن المطلق هو العالم فى وحدته وكماله. إن المطلق ليس محددًا فى زمان ومكان؛ لأنه يتضمن كل زمان ومكان فى فكره اللامتناهى الذى يشمل كل شىء. وأصبح المطلق واعيًا بذاته فى الإنسان، بصورة أكثر كمالًا فى فلسفة هيجل. ولأننا جزء عضوى من الكون، فقد نثق فى أن قوانين ذهننا هى قوانين الكون؛ لأن ما هو عقلى واقعى، وما هو واقعى عقلى(*).

وقد أثارت مسألة ما إذا كان هيجل يتصورالمطلق، وإلى أى حد، على أنه يعى ذاته بغض النظر عن البشر الذين وصلوا متأخرين إلى الأرض ـ خلافات بين أتباعه بعد وفاته. ويفترض الاهتمام الأصلى بالدين الذى أدى بهيجل فى البداية إلى الفلسفة، وأيضًا المعالجة المتعاطفة التى يقدمها للدين وبصفة خاصة للمسيحية، أنه ربما تصور المطلق على أنه عقل أو روح كامل منذ الأزل، ولا يعتمد على الموجودات البشرية لمعرفة وجوده الخاص. ومع ذلك، فإن البشر، عند هيجل والهيجليين، تقع عليهم مسئولية حقيقية فى الكون بأسره، لأن فيهم، وحدهم، على حد علمنا، ظهرت أذهان متناهية تستطيع أن تستدل وتصل إلى فهم العالم وفهم أنفسهم. ويؤكد الهيجليون كرامة البشر وأهميتهم، وهم يعلمونهم احترام أنفسهم.

(*) هذا هو الوضع الصحيح لهذه العبارة التي كثيراً ما أسيء فهمها لا سيما عند الماركسيين، فانجلز يعكس العبارة لتصبح «كل ما هو واقعي عقلي... الخ» وأشاعها على هذا النحو في دراسته الشهيرة «لودفيج فويرباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية» انظر المؤلفات المختارة لماركس وإنجلز المجلد الثاني ص ٣٦١ . وبذلك عيب على هيجل أن ينظر إلى كل ما هو موجود عقلي. وحقيقة هذه العبارة التي ذكرها هيجل أولاً في موسوعة العلوم الفلسفية» (قارن ص٥٨ من ترجمتنا العربية ـ مكتبة مدبولي عام ١٩٩٦) ثم ذكرها بعد ذلك في «أصول فلسفة الحق» (قارن ص ١١٣ من ترجمتنا العربية مكتبة مدبولي عام ١٩٩٦) ـ هو أن العقل ـ والأفكار العقلية عموماً ـ ليس من الضعف أو الوهن بحيث تظل أفكاراً ذاتية، بل هي تشق طريقها إلى الخارج وتتحقق فيصبح ما كان عقلياً واقعياً أو «ما هو عقلي واقعي...» أو متحقق بالفعل في عالم الواقع. ثم يأتي الشطر الثاني ليكون نتيجة منطقية للشطر الأول فإذا تحقق ماهو عقلي، لأصبح ما هو واقعي في هذه الحالة عقلياً (المراجع).

ويستخدم هيجل مصطلحى «العينى والمجرد» على نحو فريد، فإذا نظرت إلى أى شىء بذاته، بغض النظر عن علاقاته، فإنك تنظر إليه نظرة مجردة؛ أما إذا نظرت إليه فى علاقاته العضوية ، فإنك تنظر إليه نظرة عينية. إن قطع ورقة من شجرة ووضعها تحت المجهر، يعنى النظر إليها نظرة مجردة، لكن النظر إلى الورقة فى علاقتها بحياة الشجرة، يعنى النظر إليها نظرة عينية، فمن حيث إن الفحص المجهرى يساعد المرء فى أن يفهم وظائف الورقة فى حياة الشجرة، فإنه يساهم بالتأكيد فى فهم أكثر عينية. والنظر إلى أى لحظة منفصلة من لحظات تجربتك بذاتها هو نظرة مجردة للغاية، والنظر إلى نفسك على أنك عضو فى المجتمع هو نظرة عينية. إن مصطلحى المجرد والعينى هما بالتأكيد لفظان نسبيان. فالتصور الأكثر تجريداً الممكن هو ذلك التصور **لوجود** محض بغض النظر عن أى تقرير إضافى عن طبيعة ذلك الوجود، وعلى النقيض، يكون المطلق فقط عينيًا تمامًا. إن شريحة معينة من المعلومات مثل «سقوط الأجسام الثقيلة»، هى أكثر تجريداً من قانون الجاذبية، الذى يقرر مبدأ محدداً يمكن تطبيقه على كل جزء من المادة فى الكون، ويكون، من ناحية أخرى، أى قانون من قوانين علم الطبيعة مجرداً مقارنة بالفلسفة، التى توِّحد كل المعرفة فى نسق متماسك. (خلال المتبقى من هذا الفصل، سوف نستخدم مصطلح «المجرد»، و«العينى»، و«التجريد»، و«العينية»، بالمعنى الهيجلى. وسنستخدمها فى فصول أخرى بالمعنى العادى، ما لم تكن هناك إشارة إلى غير ذلك).

ويميز هيجل بين المجرد والكلى العينى. خذ مثلاً هذا المصطلح «إنسان»، الذى يعرّفه المنطق الصورى العادى بأنه «الحيوان العاقل»، هذا التعريف مجرد، لأنه يحذف كل الصفات التى بناء عليها يختلف كل إنسان عن الآخر. وأى تعريف مشابه «للحيوان» سيظل أكثر تجريداً، ويعنى ضمنًا صفات أقل. ويزعم هيجل، من ناحية أخرى، أن مقولاته المنطقية ليست مجردة، لكنها كليات عينية؛ أى أنها تتضمن كل الاختلافات المحددة داخل ذاتها. والمطلق عند إسبينوزا وشلنج (فى مرحلته الثالثة) هو كلى مجرد؛ لأنه هوية محض، فالمرء لا يمكنه أن يقول عنه سوى أنه موجود فحسب؛ وكل الاختلافات المعينة هى تحديدات ويجب حذفها منه. وهذا هو السبب فى مقارنة هيجل مطلق إسبينوزا بعرين الأسد فى حكاية إيسوب، والسبب أيضًا فى قوله بأن مطلق شلنج يشبه «منتصف الليل الذى تكون فيه كل الأبقار سوداء». أما مطلق هيجل فهو، من ناحية أخرى، عينى تمامًا، فهو الواقع كله متضمنًا بداخل كل، وليس شيئًا منعزلاً عن الأشياء الأخرى. وقد حاول

هيجل أن يبيّن أن كل مقولة من مقولاته، التى تكون كلاً عينيًا، تتضمن جميع المقولات الأخرى، بما فى ذلك المطلق، وأن المطلق يشملها كلها، فى نسق عضوى. والسؤال: أكان لما زعمه هيجل ما يبرره؟ الجواب: ذلك موضع خلاف بين المدافعين عنه ونقاده حتى يومنا هذا.

وقد استخدم هيجل كثيرًا قول إسبينوزا «كل تحديد سلب». فأنت لا تستطيع أن تعرّف مصطلحًا ما تعريفًا دقيقًا وتقرر أن له صفات معينة دون أن تنكر صفات أخرى. فإذا قلت «سقراط أثينى» فإننى أنكر فى الوقت نفسه أنه يهودى أو رومانى. وعنصر السلب هذا ضرورى عند هيجل فى كل استدلال. فكل شىء مرتبط بكل شىء آخر، سواء بصورة موجبة أم بصورة سالبة. لأن السلب نفسه شكل من أشكال العلاقة. إن الصفات الخالصة التى تعرّف سقراط وتحدده بأنه أثينى تنفى عنه كونه يهوديًا أو رومانيًا. وقد نظر فشته إلى مبدأ السلب بصورة قاصرة عندما جعل الأنا اللامتناهية تضع فى البداية الأنا المتناهية ثم تضع بعد ذلك اللا ـ أنا فى مقابلها. وقد أخفق فشته فى تعقب الرابطة المنطقية بين الأنا المتناهية واللا ـ أنا. لقد كان ينبغى عليه أن يبيّن أن هناك شيئًا فى الطبيعة الخالصة للأنا المتناهية يتضمن بصورة سلبية «اللا ـ أنا»، ثم كان ينبغى عليه بعد ذلك أن يتقدم خطوة أبعد ويضع الأنا المتناهية واللا ـ أنا معًا فى كل أكثر عينية يشمل علاقتهما المتبادلة. ويظهرنا جدل هيجل على أن أى موضوع Thesis يشتمل على نقيض antithesis، ويتحد الاثنان فى مركب أعلى يُرفع فيه التقابل بينهما (الرفع aufgehoben)، ويتم التغلب عليه فى وحدة أعلى (كلمة الرفع aufgehoben التى يستخدمها هيجل كثيرًا، ليس لها مقابل يفى بالغرض فى اللغة الإنجليزية؛ ولذا تترجم أحيانًا «ينفى»)(*).

ودعنا نقدم مثالاً بسيطًا من عندنا للمنهج الجدلى عند هيجل. كان إدون م. ستانتون وزيرًا للحرب فى وزارة «إبراهام لنكولن». من حيث الموضوع، دعنا نلاحظ الوقائع التى تقول إنه كان خادمًا مخلصًا ووفيًا للاتحاد، كان رجلاً دءوبًا يعمل فى مكتبه، غالبًا، ثمانى عشرة ساعة فى اليوم فى أوقات الأزمات، حتى إنه كان وزيرًا تنفيذيًا قادرًا بصورة غير عادية على معالجة شئون وزارته بكفاءة حتى إنه لم يستطع أحد آخر أن يضاهيه من وجهة

(*) لن تكون الترجمة في هذه الحالة دقيقة لأن «الرفع» الهيجلي يعنى الاستبعاد مع المحافظة على الشيء المستبعد فهو حذف وحفظ، إلغاء وإبقاء فى آن معا . (المراجع)

نظر «لنكولن»، وعلى الرغم من بعض الأخطاء، فإن مجهوداته ساهمت كثيراً فى النصر النهائى للاتحاد فى الحرب الأهلية(*). ومن حيث نقيض الموضوع، نجد أن «ستانتون» كان رجلاً سيئ الخلق إلى حد كبير من الناحية الشخصية، فهو يفقد أعصابه باستمرار، وكان يهدد مرءوسيه، وكان ذليلاً أمام رؤسائه، كانت تنقصه الفضائل بصورة تلفت الأنظار، تلك الفضائل التى يقال إنها أساسية فى الإدارى الجيد، إنه لم يكن على الإطلاق شخصية مثالية. والآن، لو أن أحد كتاب السير حلل شخصية «ستانتون» بنجاح ـ ومن المرجح أن لا يحدث ذلك أبدًا ـ لاستطاع أن يبين أنه من طبيعة «ستانتون» الإيجابية ذاتها، ومن منظور الموقف كله الذى وضع فيه، كان لابد أن تتطور صفاته السلبية أيضًا ـ (النقيض) ـ وأن كلا من الصفات الإيجابية والصفات السلبية هى جوانب متكاملة من شخصيته ككل ويعتمد بعضها على بعض بصورة متبادلة ـ (المركب). إن معرفتنا الحالية بستانتون تمكننا من أن نشير إلى التعارض الفارغ للصفات، بطريقة فشته. وكاتب سيرة «ستانتون» الناجح فى المستقبل ـ لو أمكن أن يظهر على الإطلاق ـ سوف يكون قادراً على تفسيره بطريقة أكثر إقناعًا عن طريق المنهج الهيجلى.

وهيجل، مثل باركلى، فيلسوف مثالى. غير أن مثاليته مختلفة تمامًا. لأن باركلى من المؤلهة Theist، فالله يعطينا الأفكار غير الإرادية التى تؤلف عالمنا الخارجى. ومن ثم يخلق الله العالم، وله وجوده الخاص من حيث إنه روح مستقلة بغض النظر عن خلقه. ونحن نعرف كل ذلك عن طريق فحص أفكارنا المعطاة تجريبيًا. ولذا، فإن باركلى فيلسوف مثالى مؤله. أماهيجل، فهو فيلسوف مثالى عقلى يؤمن بمذهب «وحدة الوجود». فالمطلق هو العالم فى وحدته الأصلية، وليس خالقه. وذلك هو مذهب وحدة الوجود الخالص، على الرغم من أن هيجل يكره هذه الكلمة (وحدة الوجود)، التى كانت تستخدم فى عصره باستمرار لكى تعنى مذاهب وحدة الوجود الفجة فى الهند التى تنظر إلى العالم على أنه «المايا» Maya، أى الوهم، الذى يجعلونه معارضًا للمطلق. لقد استمر الهنود أحيانًا فى وصف المطلق بأنه وحدة فارغة لا يمكن أن يقال عنها شىء بالتحديد، فى حين أنهم فى أحيان أخرى يتخيلون أنه يمكن اكتشاف المطلق فى بقرة مقدسة، أو حتى فى قطرات الماء،

(*) وهي الحرب التي شنها لنكولن (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، واستمرت حوالي أربع سنوات ـ ضد الولايات الجنوبية الثائرة التى أعلنت الانفصال عن الاتحاد (اتحاد الولايات الأمريكية) عندما أعلن إلغاء الرق . (المراجع)

وحبات الرمل. أما العالم عند هيجل فليس «المايا» ولا وهمًا، بل هو واقعى، على الرغم من أن أجزاءه المتعددة تعتمد على وحدة الكل. الكل ليس وحدة فارغة لا يمكن معرفتها، فهو عقلى ويمكن معرفته فى ترابط عضوى. فإذا بدأت بأى موضوع جزئى، مثل البقرة، أو قطرة من الماء، أو حبات الرمل، أو «زهرة تنيسون فى جدار متصدع»، وتعقبت علاقاتها مع كل شىء آخر فى العالم، فإنك تصل إلى فهم للوحدة العضوية التى هى المطلق. إن مذهب وحدة الوجود عند إسبينوزا يشبه مذهب وحدة الوجود عند هيجل أكثر مما يشبه مذاهب وحدة الوجود عند الهنود. ولقد كان إسبينوزا، كما يرى هيجل، على حق إلى حد معين، عندما تصور المطلق على أنه جوهر، لأن الجوهر واحد من مقولاته الكثيرة، لكن المطلق أبعد ما يكون عن الجوهر. فمن الأفضل أن نتحدث عنه بوصفه ذاتًا، أعنى بوصفه وحدة تتضمن وتكشف عن كل مضامين التجربة المتنوعة فى كل عينى. وليس هناك شىء فى المطلق لا يكون عقليًا، وممكن التصور، وممكن المعرفة بالنسبة للعقل المتأمل.

٣ ـ مذهب هيجل بوجه عام

الفكرة المطلقة = كل الواقع

- المنطق (الفكرة في ذاتها)
  - الوجود
  - الماهية
  - المفهوم
- الطبيعة (الفكرة لذاتها)
  - الميكانيكا
  - الفيزياء
  - الكائنات الحية
- الروح أو العقل (الفكرة فى ـ ولذاتها)
  - الروح الذاتى (السيكولوجيا)
  - الروح الموضوعى (القانون ـ الدولة ـ الأخلاق)
  - الروح المطلق (الفن ـ الدين ـ الفلسفة)

والمفهوم الأكثر شمولاً فى مذهب هيجل هو الفكرة المطلقة، والتى كثيرًا ما يشار إليها، باختصار على أنها المطلق، أو الفكرة (وعندما تستخدم كلمة فكرة بهذا المعنى، يجب أن تكتب بحرف كبير وتسبقها أداة التعريف «الـ»). وتتضمن الفكرة المطلقة، أو بالأحرى هى، كل الواقع، أو الكون. وقد يبدو مفزعًا أن يقال إن هيجل يسمى الكون بأسره باسم «الفكرة»؛ لأننا ربما نتصور الأفكار على أنها خلق ذاتى من صنع عقولنا الخاصة. ولم يتصور هيجل، بالتأكيد، الفكرة على هذا النحو. فلا شىء واقعى عنده مثل الفكرة. وربما قارنا وجهة نظره بتصور أفلاطون للمثل، فالمثل عند أفلاطون هى حقائق واقعية قد تكتشفها الأذهان البشرية، لكنها لا تخلقها؛ لكن تصور هيجل يختلف تمامًا فى نواحى كثيرة عن تصور أفلاطون. افرض أننا نظرنا إلى مبادئ الرياضيات على أنها أفكار: فهذه الأفكار تكون صحيحة أمام أى عقل بشرى يصادف أن يكتشفها ـ ومع ذلك فكل المبادىء الرياضية يمكن معرفتها، لأنه لا شىء فى طبيعة أى منها، سواء تم اكتشافه أو لا يزال مجهولاً، يكون مستحيلاً على الفهم بصورة مطلقة أمام العقل المدرب تدريبًا كافيًا. أما عند هيجل، فتستطيع العقول البشرية أن تفهم العقل، والفكرة لأن بنية العالم تنسجم مع أذهاننا التى هى أجزاءعضوية فيه، ولذلك فمن الأفضل أن نسمى الواقع النهائى بالفكرة المطلقة. وتلك الفكرة المطلقة هى الروح، أو «نفس العالم» التى تفكر وهى المقولات، والتى يشير إليها الدين على نحو مجازى بأنها الله. ولما كان هيجل يؤمن إيمانًا راسخًا بأن العقل البشرى يستطيع أن يكشف طبيعة الواقع النهائى ومساره، فإنه يستخدم الجدل بطريقة جديدة (الذى نظر إليه كانط على أنه لا يستطيع أن يزودنا إلا بوهم ترنسندنتالى)، ويجد فى الجدل المفتاح إلى المعرفة المطلقة.

وتنتقل الفكرة المطلقة عن طريق جدل مثلثات كثيرة ـ كل منها له موضوعه، ونقيضه، ومركبه. فى الموضوع ينكشف جانب معين من الواقع، وفى النقيض يظهر جانب معارض، ويُرفع الاثنان بعد ذلك فى مركب أعلى. ويؤدى هذا المركب إلى ظهور مثلث جديد مرة أخرى، ويؤدى هذا المثلث بدوره إلى مثلث آخر. فهناك مثلثات داخل مثلثات ولا تزال هناك مثلثات داخلها. ويكون كل عضو من هذه المثلثات هو المطلق. والجدل الهيجلى موضوعى بصورة دقيقة، فنحن لا نتخيله؛ لأنه النظام الفعلى الذى يسير عليه فكر المطلق. ويحاول هيجل أن يبرهن على ذلك عن طريق استنباط منطقى لكل عضو فى النسق من العضو الذى سبقه. ويبدأ الجدل بتصور أكثر تجريدًا لمنطق خالص ـ أى الوجود الخالص ـ

وينتهى بالطور الأكثر عينية من الفكر، أى بفلسفة الروح المطلق فى شمولها التام وعينيتها. وسير الجدل منطقى خالص، ومع ذلك، فإن الأحداث فى الزمان تطابقه إلى حد ملحوظ، كما يحاول هيجل أن يبين عن طريق أمثلة توضيحية من التاريخ البشرى فى مجال السياسة، والفلسفة، والفن، والدين.

والقضية أو الموضوع فى أكثر المثلثات عمومية هى المنطق، ونقيضها هى الطبيعة، والروح هى المركب. والفكرة المطلقة فى ذاتها (an sich) من حيث إنها عقل خالص، بغض النظر عن العالم، هى مقولات المنطق، وتتقدم الفكرة من هذه المقولات لتصبح من أجل ذاتها (Fur sich)، أو كما نميل إلى القول، خارجة من ذاتها، إلى عالم الطبيعة الخارجى، كما تنكشف فى العلوم الطبيعية. ثم تعود الفكرة إلى ذاتها فى المركب الذى يشمل المنطق والطبيعة بوصفها الروح، وهى تصبح فى التجربة البشرية ذاتًا تعى نشاطها الخاص.

٤ ـ المنطق

«المنطق» عند هيجل هو الفكرة المطلقة فى ذاتها، قبل أن تصبح طبيعة خارجية. (وفى تعبيرات من هذا النوع، يجب أن يتذكر المرء أن كلمة «قبل» تشير إلى أسبقية منطقية فقط، ولا يعنى هيجل أنه فى قديم الزمن لم توجد الفكرة المطلقة إلا من حيث إنها مقولات المنطق وأنها تخارجت بعد فى الطبيعة). إن كل مقولة من مقولات المنطق المتتابعة هى الفكرة المطلقة فى إحدى مراحلها. ويشير النظام الذى يرتب فيه هيجل المقولات إلى تقدم من التجريد إلى العينية، وهو تصنيف منطقى خالص ولا يشير إلى تتابع فى الزمان، لأن كل المقولات أزلية. وكل مقولة من حيث إنها مرتبة فى السلسلة تتضمن جميع المقولات الدنيا، وأنها كلها يمكن أن تستنبط منها منطقيًا. وكل مقولة تضم بداخلها صراحة كل المقولات التى تسبقها. وتنطبق كل مقولة من مقولات المنطق على كل شىء فى العالم.

وتلك المقولات ليست فيما يرى هيجل من اختراع البشر، ليست مستمدة من الاتفاق البشرى، كما يؤكد «وليم جيمس» وبرجماتيون آخرون فيما بعد. وهى ليست بناءات فطرية للفهم البشرى، لا تصدق على العالم من حيث إنه شىء فى ذاته، كما افترض كانط. ويعتقد هيجل أن المقولات حقائق واقعية موضوعية أصيلة اكتشفها هو، واستطاع أن يحدد علاقة الواحدة بالأخرى؛ لأنها أوجه Modes لكل فكر بشرى عقلى وإلهى.

وهى قبلية بالنسبة للتجربة البشرية، لأنها تلازم بنية الكون. وإلى هذا الحد يكون هيجل فيلسوفًا واقعيًا.

ويتكون مثلث المنطق الأكثر شمولاً من مقولة الوجود (Sein)، والماهية (wesen)، والفكرة الشاملة (Befriff). فى نظرية الوجود تتجلى الحقيقة الواقعية بصورة أكثر تجريدًا، وفى نقيض الموضوع، أى فى مقولات الماهية تنكشف الطبيعة الداخلية للتفكير من حيث إنها نتاج للانعكاس، والمركب هو الفكرة الشاملة (كما تترجم كلمة Bergiff بصور متعددة) (*). ويتفق فى الفكرة الشاملة التعارض بين الوجود والماهية ويتم التغلب على التعارض فى مركب أعلى.

(*) هذا المصطلح الهيجلى الهام Begriff عسير الترجمة حتى فى الإنجليزية والفرنسية وهو يترجم على أنحاء شتى، وقد آثرنا ترجمته «بالفكرة الشاملة» وليس «التصور» ذلك لأن كلمة «التصور» في اللغة العربية تحمل ظلالاً من الغموض والذاتية التي يحاربها هيجل. يقول الجرجانى فى تعريفاته «التصور هو حصول صورة الشيء في الذهن» المطبعة المحمدية ص ٤٠، ومن هنا كانت الفكرة الشاملة» أقوى فى دلالتها على المعنى الهيجلى الذى يفيد «الفكر» و«الشمول فى آن معا». قارن ترجمتنا للجزء الأول من «ظاهريات الروح» ـ قصور الثقافة بمصر ص ١٤٢ . (المراجع)

المنطق

قائمة المقولات الرئيسية فى منطق هيجل(٦)

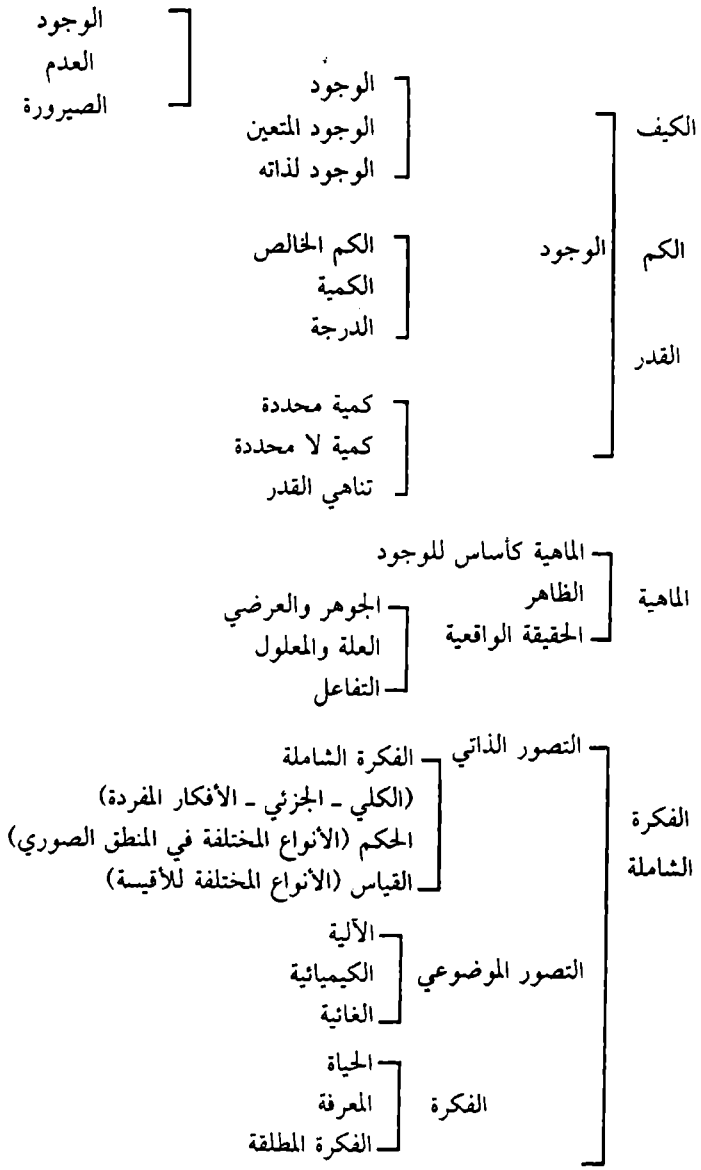

والوجود هو الجانب الخارجي المجرد من الأشياء، هو خصائصها الأكثر عمومية، أما الماهية فهى تركيبها الداخلى. خذ أى موضوع جزئى يوجد أمامك، وليكن حجرًا. إن الحجر هو بالتأكيد موضوع فيزيائى فى مجال الطبيعة (من حيث إنها تعارض المنطق). هذا الحجر يكون مثل أى موضوع آخر فى الطبيعة تجسيدًا لكل مقولات المنطق. وربما تكون مقولة الجوهر، من المقولات التى تتبادر إلى ذهن الشخص بسرعة، عندما ينظر إلى حجر ما؛ لأن الحجر يتكون من مادة من نوع ما. ونحن لا نعرف ذلك إلا عن طريق التفكير؛ لأن الجوهر مقولة من مقولات الماهية فى قائمة مقولات هيجل، وهى مقولة عينية نسبيًا فى تلك القائمة. وما هو أكثر تجريدًا من جوهر الحجر صفاته، وشكله (هيئته)، والواقعة التى تقول إنه يمكن أن يقاس. ويوجد، فى قائمة هيجل، مقولات الوجود، من حيث إنها تقابل الماهية، لأنها أكثر تجريدًا ومباشرة. ولابد أن يتكون أى شىء يمكن أن يقاس من أجزاء متميّزة من الناحية الكمية. وبمعنى آخر، تتضمن مقولة القَدْر Measure بداخلها وتفترض مقولة الكم. ولكن ما يكون له كم لابد أن يتكون من كيفيات يمكن تمييزها. ولذلك، تتضمن مقولة الكم وتفترض مقولة الكيف. وبالتالى، فإن مقولات الوجود، كما أوضحنا عن طريق مثال الحجر أو أى موضوع آخر نختاره، هى، فى نظام التجريد الذى يتضاءل والعينية التى تزداد ـ مقولة الكيف، والكم، والقَدْر، وكل مقولة منها تتضمن كل المقولات التى تسبقها، وتتضمن كل المقولات التى تليها، وتؤدى فى الوقت المناسب إلى مقولة الماهية، التى تتضمن مقولة الجوهر.

ودعنا ننظر بإمعان أكثر إلى مقولات الكيف. إن الجانب الأكثر تجريدًا من أى كيف هو أنه موجود، أى أنه يمتلك وجودًا Being. وهذا هو أقل ما يمكن أن نقرره عن أى شىء يمكن إدراكه أو تصوره. إنه كلى حتى إنه يكون موجودًا فى كل شىء. وهو، بوضوح، الأكثر تجريدًا من كل الكليات. وبالتالى، إذا كان كل ما تستطيع أن تقوله بصورة إيجابية عن أى شىء هو أن مقولة الوجود تنطبق عليه، فإنك لا تستطيع أن تقول شيئًا محددًا عنه على الإطلاق. أو ما يقصده هيجل هنا ليس شيئًا غامض الدلالة كما قد توحى لغته الغامضة بالمرء إلى أن يفترض ذلك. ومن منطلق حبه للمفارقات ونقائض الموضوعات، فإنه لا يقول سوى أنك لو قررت أن شيئًا يكون موجودًا، أعنى يمتلك وجودًا، فإنك تؤكد وجود كيف ما غير محدد للغاية لا تكون مستعدًا حتى الآن لأن تقول

عنه شيئًا محدداً. إنك تقرر أبعد من ذلك أن شيئًا يكون ذلك الكيف غير المحدد ولا يكون ما لا يكون ذلك الكيف. ولذلك، فإنك تقرر، بطرق مختلفة، فى الوقت نفسه أن شيئًا يكون، وأن هذا الشىء الذى يكون، لا يكون شيئًا آخر. وبالتالى، فإن اللاوجود أو العدم هو نقيض الوجود، ويؤدى تقرير الوجود بك فى الحال إلى تأكيد النقيض، أى العدم. إن الوجود يتضمن تمييزاً عما لا يكون، أى اللاوجود، أو العدم، لأن كل تحديد هو سلب.

وفضلاً عن ذلك، إذا وجدت فى تأملك لأى شىء أنه يكون حتى الآن كيفًا غير محدد، ولا يكون، بالتالى، ما لا يكون ذلك الكيف، فإن ما تدركه أو تتصوره يكون و لا يكون ـ ثم تنقاد بعد ذلك إلى مركب الوجود (ما يكون) والعدم (ما لا يكون)، أعنى مقولة الصيرورة Becoming. لأن الصيرورة (التغير، والانتقال) هى انتقال شىء ما إلى ما لم يكنه من قبل. ولقد فهم «بارمنيدس» فى تاريخ الفلسفة اليونانية المبكرة التعارض بين الوجود واللاوجود، ولذلك أكد، بصورة دجماطيقية، أن العالم يكون على ما هو عليه ـ أى «ما هو موجود، موجود»، ورأى أيضًا أن اللاوجود أو العدم يقابل الوجود ـ أعنى «ما لا يمكن أن يكون». ولسوء الطالع، هذا هو الحد الذى استطاع أن يصل إليه بارمنيدس فى تطور المقولات، ولم يستطع أن يجد مكانًا للتغير أو الصيرورة. وتقدم «هيرقليطس» خطوة أبعد عندما أعلن أن العالم فى «صيرورة»، أى فى تغير لا يتوقف، فهو انتقال مما كان فى الماضى إلى شىء لم يكنه، بل أنه تحول إليه. وقد أوجد «الذريون» فيما بعد فى الفلسفة اليونانية مركبًا من الوجود والصيرورة؛ فكل ذرة هى وحدة من الوجود لا يمكن أن تتفكك وتتلاشى، ومع ذلك فالذرات تتغير باستمرار فى تركيباتها.

وإذا اقتنع القارىء بأن الصيرورة هى مركب منطقى خالص من الوجود واللاوجود، وقبل بالتالى هذا الاستنباط الأول الذى قام به هيجل للمقولات، فإن ذلك يعنى أنه يوافق على منهج هيجل من حيث المبدأ. وإذا اعتقد القارئ ، من ناحية أخرى، أن التصورات المجردة للوجود واللاوجود، عندما يقابل بعضها بعضًا، لا تؤدى إلى تصور أبعد هو التغير أو الصيرورة من حيث إنها مركب من الوجود واللاوجود، فإنه بذلك يتهم هيجل بأنه يدس هنا خلسة تصوراً جديداً لا يعرفه إلاعلى أنه نتاج للتجربة، وليس نتيجة لعملية استنباطية منطقية خالصة. وسيميل مثل هذا القارىء إلى رفض منهج الجدل الهيجلى

بأسره. ومن الواضح جداً أن هيجل كان على حق فى الاعتقاد بأن التغير يتضمن شيئًا يصبح غير ما كان عليه من قبل. وتلك مسألة لا نزاع فيها، لكن هل التصور المجرد للوجود، مأخوذًا بذاته، يجبرك من الناحية المنطقية على أن تتصور منذ البداية اللاوجود، ثم تربط بعد ذلك بين الاثنين فى الصيرورة، كما يزعم هيجل؟.

وسيلاحظ القارىء فى قائمة المقولات الرئيسية التى وضعناها من قبل، أن هيجل يستخدم كلمة «وجود» لكى يميز ثلاث مقولات مختلفة. ولم يجد هيجل كلمات كافية فى اللغة الألمانية تساعده على استخدام كلمة منفصلة لكل مقولة؛ لكن السياق يوضح باستمرار ما كان يجول بخاطره فى أى حالة جزئية. وفى الطرف الأقصى للوجود، هناك الفكرة المطلقة، التى تتضمن فى عينيتها كل مقولات المنطق الأخرى، فى حين أن الفكرة المطلقة هى فى فلسفة الروح المركب النهائى لكل التصورات السابقة فى النسق بأسره. ولابد لنا أن نتذكر أن الفكرة المطلقة هى الوجود، وهى الصيرورة، وهى الكيف، وهى الماهية، وهى الفكرة الشاملة، وهى الطبيعة، وهى الروح، فى كل تجريداتها وفى كل عينيتها. فجميع المقولات الأخرى متضمنة حتى فى مقولة الوجود الأكثر تجريدًا، ويمكن استنباطها منها فى نظام منطقى يزداد فى عينيته بالتدريج. لقد تتبعنا الخطوة الأولى فى ذلك التقدم الجدلى، الذى تمّ بواسطته استنباط مقولة الصيرورة من مقولة الوجود، وأشرنا إلى الطريقة التى ينتقل فيها الكيف والكم بعد ذلك إلى «القَدْر».

وعندما نستطيع أن نطبق مقولات «القدر»، فإننا نستعد للتقدم من ظواهر الأشياء الخارجية إلى بنيتها الداخلية التى نستطيع أن نعرفها عن طريق الانعكاس، وبالتالى نتقدم نحو مقولات الماهية، وربما قلنا، ننتقل من الحس المشترك السطحى إلى التحليل العلمى. وتتضمن مقولات الماهية بداخلهامثلث الحقيقة الواقعية (الوجود بالفعل) Actuality التى تشمل مقولات الجوهر، والعلية، والتفاعل، إلى حد أبعد مما تصوره كانط. وطالما أننا لا نفكر إلا على أساس الجوهر، والعلّية، فإن العالم يبدو أنه محدد عن طريق ضرورة مطلقة، لكن عندما ننتقل إلى مقولة التفاعل، التى تؤثر فيها الموجودات الفاعلة بعضها فى بعض وتحدد بعضها بعضًا، نجد أن جميعها بداخل الكل المتبادل تكون محددة بصورة متبادلة؛ وهذا التحديد الذاتى هو حرية الكل. ولذلك تقودنا مقولة التفاعل بعيدًا عن منطقة القانون العلمى، وتحديد كل شىء عن طريق أشياء أخرى خارج ذاته، إلى منطقة التحديد

الذاتى لكل أوسع وأكثر شمولًا. لكن الوصول هنا، هو تجاوز لماهية التصور بمقولاته الأكثر عينية.

ودعنا نحاول توضيح تحليل هيجل للحاجة الماسة إلى حرية على نحو قد يلقى ضوءًا على فكره، على الرغم من أنه لا ينصفه إنصافًا كاملًا. افرض أن طبيبًا يرى أناسًا حوله يموتون بوباء معين، ولنقل أنه وباء حمى التيفود، إننا هنا نجده يقاوم، فى يأس، قوى تسبب الوفاة دون أن يكون له حول ولا قوة، ويعجز عن السيطرة عليها. فالكون هنا بالنسبة له هو نسق من الضرورة المحتومة؛ لأنه لا يستطيع أن يمنع انتشار الوباء. لكن افرض أنه اكتشف أخيرًا مصدر العدوى وتحكم فيه، فإن الطبيب يصبح الآن حرًا. فقد أصبح نفسه الفاعل الذى يتصرف فى نسق من الأحداث لم يكن لديه قدرة من قبل على السيطرة عليه. فالحرية هى الضرورة عندما تتكشف وتفهم. والمعرفة عن طريق الفكرة الشاملة هى الحرية. ودعنا الآن نأخذ مثالين توحى بهما تعليقات هيجل نفسه. إنسان يتصور نفسه على أنه مجرد رابطة فى سلسلة أحداث، يشعر بأنه مقيد، ومع ذلك، لو أنه وحّد نفسه مع الواقع كله أو مع المطلق، فإنه يكون حرًا؛ ويثنى هيجل على اسبينوزا لأنه تعرّف على ذلك فى تصوره للحب العقلى لله. والمثال الثانى هو المجرم الذى وقعت عليه عقوبة، يشعر بأنه مجبر ومقيد من الخارج، ومع ذلك، لو أنه أدرك أن عقوبته وقعت عليه، فى حقيقة الأمر، بسبب سوء سلوكه، أى أنها ارتداد لأفعاله الخاصة، فإنه يكون حرًا[٧]. ومن المحتمل أن هيجل يفترض أن المجرم يندم عندما يعرف الرابطة المنطقية بين جريمته وعقوبته، ويعيش بعد ذلك وفقًا لقوانين المجتمع، ويصبح مواطنًا صالحًا.

ويعالج المثلث الثالث للمنطق الفكرة الشاملة. (الكلمة الألمانية هى Begriff، وربما تكون أفضل ترجمة لها الفكرة الشاملة. وتفترض المعانى الجذرية لكل من Begriff و Concept عناصر دقيقة متماسكة ومحكمة معًا فى نسق، حتى إن وحدتها العضوية تصبح واضحة). ويعبر المطلق، فى الفكرة الشاملة الذاتية، عن نفسه فى كليات المنطق المألوف، التى فسرها هيجل من جديد لكى يجعلها عينية، ولكى يظهر علاقتها العضوية. ويُرى الكلى، فى تصور مفرد لشخص فرد أو لشىء ما، موجودًا فى مثال جزئى، ويكون المثال الجزئى مثالًا للكلى. فسقراط مثال جزئى «للإنسان» الكلى. و«الإنسان» ليس تجريدًا؛ لأنه يوجد فى أناس معينين مثل سقراط، وهؤلاء الناس يوجدون بدورهم فيه. وتتضح العلاقة العضوية بين الكليات والأفراد بصورة أكثر فى الأحكام، وتتطور أبعد ويتم البرهان عليها

فى الأقيسة. ويعتقد هيجل أن القياس ليس أداة مصطنعة لبيان حجج، بل إنه واقعى، لأنه النسق الفعلى للتفكير الذى يتألف منه الكون.

وتشمل الفكرة الشاملة الموضوعية عناصر جزئية توضع معًا بصورة آلية وكيميائية، غير أن الآلية والكيميائية تجدان، على الرغم من علاقتهما الواقعية فى العالم، معناهما العميق فى الغائية، لأن كل شىء له غرضه الغائى الذى يُفهم على ضوئه، كما رأى أرسطو من قبل. فالحقيقة الواقعية المحايثة فى بذرة البلوط تتجلى بوضوح فى شجرة البلوط، والتطور من بذرة البلوط إلى شجرة البلوط هو غائية محايثة تكشف عن المغزى الداخلى لبنى الآلية والكيميائية. ويتحقق مركب الفكرة الشاملة الذاتية (المنطق العادى الذى أعيد تفسيره من جديد بطريقة هيجلية)، والفكرة الذاتية الموضوعية (المغزى العينى للعلم) فى مقولة الفكرة، التى تشمل مثلث الحياة (العالم بوصفه وجودًا حيًا)، والمعرفة (العالم يصبح واعيًا بذاته)، والفكرة المطلقة (العالم يعى ذاته فى وحدته المنطقية التامة وكماله). وتضم مقولة الفكرة المطلقة داخلها كل المقولات السابقة بوضوح، ابتداء من المقولة الأكثر تجريدًا، أى الوجود. وتؤلف تلك المقولات مركبًا كاملًا يعى ذاته ويكون حرًا.

ويؤدى إصرار هيجل على أن الفكر والواقع متطابقان إلى تأكيده للدليل الأنطولوجى على وجود الله، الذى رفضه كانط، الذى ميزّ بين الفكر والواقع. وعند هيجل ليس هناك واقع سوى الفكر، ولذلك يعى الفكر نفسه فى المقولات العليا التى تعرف، بالتأكيد، وجودها الخاص من حيث إنه المطلق[٨]. ويعتقد الهيجليون أن هيجل محق فى ذلك، ومن الممكن رد الاعتبار للدليل الأنطولوجى. ويتفق معظم الفلاسفة من مدارس أخرى مع كانط فى رفض هذا الدليل. فهل الفكر والواقع متطابقان؟ هل الواقع نفسه نسق من الفكر يعرف ذاته من حيث إنه كذلك فى المطلق؟ تلك تساؤلات محل نزاع وخلاف.

٥ ـ فلسفة الطبيعة

فى مقابل المنطق، الذى يكون فيه المطلق فكرًا خالصًا، تقف الطبيعة التى يتخارج فيها الروح المطلق من حيث إنه العالم الخارجى. وهدف هيجل فى «فلسفة الطبيعة» هو أن يعرض للمفاهيم الكلية التى تكون أساسًا للطبيعة. وتختلف التصورات عن مقولات المنطق من حيث إنها ليست كلها موجودة بالضرورة فى كل شىء. فهناك كليات فى

الكائنات الحية، مثلًا، لا تظهر فى المادة اللاعضوية. وهيجل ليس من أنصار مذهب شمول النفس.

وتصورات الطبيعة الأدنى والأكثر تجريدًا هى مثلث المكان، والزمان، والحركة؛ التى تؤدى إلى مبادىء الآلية الأخرى. وتلك المبادىء موجودة، بالتأكيد، فى كل طبيعة. وفي مقابل الآلية هناك تصورات الفيزياء، ويكون علم الكائنات الحية أعلى من هذه التصورات من حيث إنه مركب فى حالة الكائنات الحية. فالكائن الحى يكون فى تركيبه آليًا وفيزيائيًا، غير أنه شىء أكثر من ذلك. ويظهر الوعى بدرجة أدنى فى الحيوانات. ويمتلك الإنسان وعيًا ذاتيًا، لأنه يستطيع أن يستدل، فهو يمتلك عقلًا أو روحًا، بالمعنى الهيجلى. ولذلك، يعود الروح المطلق، الذى يكون فى عالم خارج ذاته فى الطبيعة، إلى نفسه فى أفراد متناهين يشاركون فى فكره العقلى الخاص. ويؤدى ذلك بهيجل إلى الجزء الثالث من مذهبه، وأعنى فلسفة الروح.

وليس من الضرورى مناقشة فلسفة الطبيعة عند هيجل بالتفصيل. إذ يُسلّم معجبوه بأن هذه الفلسفة هى أضعف جزء من فلسفته. إن تدريبه واهتمامه يكمنان فى مجالات مثل المنطق، والميتافيزيقا، والأدب، واللاهوت، والفن، والتاريخ البشرى. وقد كانت لديه معرفة علمية ضئيلة أو استعداد طبيعى قليل. إن الإنسان لا يستطيع أن يتفوق فى كل شىء. ومع ذلك، فثمة ملاحظتان قد نسوقهما قبل أن نترك ذلك الجزء من فلسفته.

لقد استبق هيجل مذهب التطور إلى حد أنه عزا إلى الطبيعة عملية منطقية من الصور الأدنى إلى الصور الأعلى؛ لأن المادة اللاعضوية، والنباتات، والحيوانات، والإنسان، تتبع العينية المتزايدة، والزمان والمكان. ويبدو، بالتأكيد، أن هذا التتابع المنطقى يفترض تطورًا مناظرًا فى الزمان، خاصة كما حاول هيجل أن يجد توازيًا بين الخطوات المتتابعة فى فلسفته الخاصة بالروح، وأحداث فى التاريخ البشرى. ومع ذلك، يرفض هيجل بصورة جازمة التصور «السديمى» لأصل تنظيمات حيوانية أكثر تطورًا من الأدنى [٩]. لقد عاش قبل أن يظهر استحسان تفسير «دارون» و«لامارك» للتطور العضوى. وبالتالى، بينما تُرك «لهربرت سبنسر» أن يصبح أول فيلسوف حديث يعرف دلالة التطور البيولوجى، فقد ساعد مذهب هيجل الذى يرى أن ثمة نظامًا منطقيًا فى الطبيعة فى إعداد العقل الأوربى لفلسفات التطور فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

ولم يكن هيجل،شأن الفلاسفة المثاليين المطلقين الذين تأثروا به فى العصور المتأخرة، معاديًا للعلوم الطبيعية، ولم يرفض التفسير الآلى للطبيعة من حيث إنه تفسير صحيح داخل مجال البحث العلمى حيث وجد أنه تفسير مقنع. ومع ذلك، فالآلية تصور مجرد فى الطبيعة بقدر ما هو مجرد فى المنطق. أما الغائية فهى تصور أكثر عينية. فلكل كائن حى، مثلًا، بنيته الآلية، وهو يخضع لقوانين الفيزياء والكيمياء. ومع ذلك، لا تفى الأوصاف عن طريق تلك القوانين بالغرض. لأن علاقات الأعضاء المتعددة بعضها ببعض، داخل أى كائن حى، تؤلف كلًا واحدًا يكون أكثر من التفاعل الآلى المحض لأجزائه، على الأقل عندما نقوم بدراستها دراسة فلسفية. فحياته تحقق غرضه الداخلى الخاص. إن الطبيعة بأسرها تحكمها قوانين آلية، غير أنها تمتلك معنى أعمق مما يستطيع أن يكشفه السرد المحض لتلك القوانين. وذلك ما يقصده الفلاسفة من أصحاب المثالية المطلقة عندما يصرون على أن للعالم دلالة روحية.

٦ ـ فلسفة الروح

يعالج القسم الثالث من فلسفة هيجل، وأعنى به فلسفة الروح، تجارب البشرية الحضارية. يعالج موضوع المثلث الرئيسى أى «الروح الذاتى»، السيكولوچيا، أى عمليات الأفراد العقلية منظورًا إليها بذاتها بصورة مجردة، بمعزل عن المجتمع. ونقيض هذا الموضوع، هو «الروح الموضوعى»، الذى نجد فيه عقل الإنسان (روح الإنسان) يبلغ الحرية، والعينية، والموضوعية فى العلاقات الاجتماعية. ويصبح الإنسان، أخيرًا، فى مركب المثلث ـ أى فى «الروح المطلق» ـ واعيًا بذاته بصورة عينية وواعيًا أيضًا بالعالم المادى والاجتماعى الذى يعيش فيه، ويصبح من خلال الفن، والدين، والفلسفة، ممتنًا بأصله الإلهى ومصيره، من حيث إنهما تجل للفكرة المطلقة. وبينما يكون النظام الذى تظهر فيه التصورات المختلفة فى الجدل منطقيًا خالصًا، ـ تزداد عينيته بالتدريج ـ فإن هيجل يعتقد أن تتابع الأحداث البشرية تتبع هذا النظام إلى حد ما .

وتبدو سيكولوجيا هيجل الآن ـ بتقسيماتها الفرعية الغريبة إلى ما يطلق عليه «الأنثربولوچيا» و«الفينومنولوجيا» ـ قديمة العهد. ومع ذلك، فقد كانت استبصاراته موضع تقدير فى العصر الذى عاش فيه. فقد عرف، مثلًا، أن كل مثير واستجابة جزء من كل عضوى، ومن المستحيل التفكير فى النفس على أنها جوهر منفصل فى تأثير متبادل مع

العمليات الجسمية أو موازية لها، لكن ذلك الوعى (أو كما يقول البعض الآن، السلوك) هو تنظيم مؤلف (هو تكامل) لوظائف جسمية. ويشير هيجل بقدر من الدقة إلى النظام الذى يحتمل أن تكون العمليات الذهنية (أو أوجه السلوك) قد نشأت منه.

وينظر البعض إلى معالجة هيجل «للروح الموضوعى» على أنها أفضل جزء فى فلسفته. ويتكون المثلث الرئيسى هنا من الحق (Recht)، بمعنى الحق المطلق (الذى يُنظر فيه إلى الأفراد فى علاقاتهم الخارجية بعضهم ببعض، وحقوق بعضهم تجاه البعض الآخر)، ومن الأخلاق الشخصية (Moralitat) (التى فيها يحول الأفراد أفكارهم إلى الداخل، ويفحصون ضمائرهم)، ومن الأخلاق الاجتماعية (Sittlichkeit) (التى تتموضع فيها الحقوق الذاتية والضمير الداخلى فى مؤسسات اجتماعية مثل الأسرة والدولة).

ويعرّف هيجل المبدأ العام للحق المجرد بأنه «كن شخصًا واحترم الآخرين بوصفهم أشخاصًا». ويشبه هذا الرأى القاعدة الثانية من قواعد الأمر المطلق عند كانط. ولما كان الإنسان شخصًا، وواعيًا بذاته، وحرًا، ومزودًا بقدرات أخلاقية، ويختلف بذلك عن الحيوان، فإنه يكون حاملًا لحقوق ويكون لديه التزامات مناظرة نحو نفسه ونحو أقرانه.

ويتطور الحق فى مثلث الملكية والعقد، والخطأ (الضرر، والقانون الجنائى... إلخ)؛ فالإنسان بوصفه شخصًا له الحق فى الملكية، وذلك يمكنه من التعبير عن شخصيته،عن طريق إعطائه الوسيلة المادية التى يستطيع بواسطتها أن يحصل على الأمن لنفسه ولأسرته وأن يخطط للمستقبل، ويصبح، بالتالى، حرًا بطريقة جوهرية. ويتضمن الحق معرفة حقوق الأشخاص الآخرين فى ملكيتهم الخاصة. ومعالجة هيجل العامة للملكية معالجة فردية؛ بمعنى أن الإنسان يبلغ الشخصية عن طريق اكتساب الملكية وإدارتها بطريقة محمودة أخلاقيًا. ولا تفترض آراء هيجل، فى الوقت نفسه، إغفالًا للمظالم الاجتماعية التى تجعل من المستحيل الآن على معظم الأشخاص أن يمتلكوا ملكية خاصية عن طريق مجهوداتهم الخاصة. ولا يكون العلاج بناء على الأفكار الهيجلية، فيما يبدو، فى الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية، اللتين تلغيان الملكية الخاصة، وإنما يكون بالأحرى فى نظام اجتماعى تصبح فيه الملكية الخاصة أكثر عمومية ويتم حمايتها بصورة أفضل.

ويكون لشخصين يمتلكان ملكية الحق فى أن يرتبطا بعقود، التبادل والتجارة، ويستطيعان عن طريقها أن يحولا ملكيتهما لمنفعة متبادلة، ولابد أن يحترم كل منهما الآخر بوصفهما شخصين فى تلك المعاملات التجارية، ويفعلان بنية مخلصة. والفشل فى تحقيق

ذلك يؤدى إلى الخطأ، وقد يكون ذلك الخطأ غير متعمد أو غير مقصود، وفى هذه الحالة يكون المخطىء ملزمًا بتعويض أو برد الملكية، أو قد يكون نصبًا واحتيالاً، وفى هذه الحالة يتظاهر المخطىء بأنه يسلك سلوكًا يتفق مع الحق، غير أنه لا يفعل ذلك،، ويجب فى هذه الحالة أن ينال جزاء، أو قد يكون (الخطأ) جريمة، وفى هذه الحالة ينتهك المخطىء بصورة علنية حقوق الآخرين ويستحق العقوبة.

ولا ينظر هيجل إلى العقاب على أن ما يبرره أساسًا هو أنه ردع لجرائم المستقبل، ولا أنه جزاء يستهدف إصلاح المخطىء؛ لأن التأكيد على أى هدف من هذين الهدفين معناه الإخفاق فى احترام شخصية المجرم الخاصة، ومعاملته كما لو كان حيوانًا أو موجودًا فى منزله دنيا[١٠]. إن العقاب يجب أن يكون تعبيرًا عن إرادة اجتماعية أو عامة تتجسد فى الدولة، وليس تعبيرًا عن أطراف تشعر بأنها مهضومة الحق. ويُفسِّر هيجل، باستمرار، على أنه يعنى أن العقوبات تعلم المجتمع المخطئ نفسه إذا كان ذلك ممكنًا، أن يتحقق من أن أى جريمة، من حيث إنها مسألة من مسائل العدالة، ترده عن الخطأ، عندما يعانى من نتائج سلوكه. لقد استحسن هيجل الحركات التى كانت موجودة فى عصره لإنسانيتها العظيمة فى معاملة المخطئين، وقصر عقوبة الإعدام على جرائم كبرى قليلة.

وينقلنا النظر فى الفعل الخطأ، وبصفة خاصة الجريمة، من الحق المجرد، الذى يهتم بأشياء خارجية مثل الملكية، إلى مسئولية أخلاقية وإلى العمليات الذهنية الداخلية للفاعل أعنى الانتقال إلى دراسة الأخلاق الفردية Morality التى تتميز عن الحق المجرد أو القانون والتى تكون نقيض الموضوع بالنسبة له وإلى الغرض الذاتى، القصد (النية) intention، وإلى موقف الضمير عند شخص ما، الذى يميز بين الخير والشر. والشخص مسئول أخلاقيًا عن أغراضه (أو نواياه)، التى تتضمن كل النتائج التى ينبغى أن يكون قادرًا على أن يتوقعها قبل أن يسلك سلوكًا معينًا، ولا يكون مسئولًا إلا عن تلك الأغراض فقط. ويكون القصد (النية) من النتائج المتوقعة والمرادة، تلك التى تكون جزءًا جوهريًا من الفعل. وقد يتضمن القصد سعادة Well-being الفاعل وسعادة الآخرين. ويعتقد هيجل أنه من الصواب بالنسبة للإنسان أن يحتوى قصده على خيرات أخرى بجانب الأداء المحض للواجب، شريطة أن لا تتضمن شيئًا يخالف الواجب. والرجل العظيم الذى يؤدى خدمات هامة للعالم، ينبغى ألا يُلام لأن قصده يتضمن عَرَضًا، السلطة، أو المجد، أو الشهرة لنفسه. ولم يكن هيجل قاسيًا بالنسبة لإنسان يسرق رغيفًا من

الخبز عندما يكون الأمر ضروريًا لأن يفعل ذلك لكى يطيل حياته، التى تكون أكثر أهمية من الملكية. إنه يسوغ تخصيص بعض الأدوات، والملابس، والأمور الضرورية والأخرى للمدين المفلس على حساب دائنيه. ولا يمكن، من ناحية أخرى، أن يُعفى شخص ما من المسئولية عن ضرر كبير سببه للآخرين بسبب «مقاصده الطيبة» المزعومة، إذا فشل فى أن يضع فى اعتباره النتائج الشريرة التى تنتج من فعله المتهور. وعندما يتأمل شخص ما من الداخل أغراضه ومقاصده، يظهر ضميره، ويميز بين الخير والشر. والخير هو إرادة ما هو عقلى وما يعمل على نجاح الرفاهية العامة، أما الشر فهو إرادة ماهو ضار. إن الأخلاق، باستخدام هيجل للمفهوم، هى، بحق، أن يفعل الشخص وفقًا لما يمليه ضميره الخاص، ويؤكد هيجل من جديد نظرية الاستقلال الذاتى عند كانط. ومع ذلك، يشير هيجل إلى أن ضمير الإنسان قد يخطىء ولا يستطيع الناس أن يبلغوا الحرية والمعرفة العقلية بما هو خير وما هو شر بالفعل إلا فى مجتمع منظم تنظيمًا جيداً. وأخلاق المجتمع الحصيفة، التى تتجسد فى مؤسسات تكون نتاج حكمة العصور، يوثق بها أكثر من ضمير الشخص المتعصب (بالإضافة إلى ما نسميه «المعترض المخلص»).

ويظهر مركب الحق المطلق والأخلاق الذاتية فى أخلاق موضوعية أو اجتماعية. والمثلث الرئيسى داخل الأخلاق الاجتماعية هو الأسرة، والمجتمع المدنى، والدولة. ويرى هيجل فى الأسرة المؤسسة الاجتماعية الأصلية والأساسية التى تتحقق فيها الحرية. ولا يفهم الزواج فهمًا كافيًا إذا نظرنا إليه على أنه مجرد علاقة جنسية، أو عقد مدنى، أو اتحاد ينتج من حب رومانسى. وهو يشمل كل ذلك، بالتأكيد، غير أنه فوق كل ذلك، ويجب أن يكون، اتحادًا «أخلاقيًا» يوافق فيه فردان بحرية على أن يصبحا شخصًا واحدًا؛ يتخلى كل واحد منهما عن المصالح الأنانية لكى يدخل فى حياة أكبر من حب متبادل، ومساعدة، وإرادة مشتركة، وأغراض مشتركة. إنه مؤسسة اجتماعية، ذات اهتمام عام بالمجتمع؛ ولذلك، لابدأن تحدد ظهوره مراسم مدنية، ولا يسمح بالطلاق الذى يكون نتيجة نزوة عارضة من أحد الشريكين أو من كليهما، بل يسمح به فقط نتيجة لأسباب خطيرة الشأن يحددها القانون. ويجب على الزوج باعتباره رب الأسرة أن يكسب المعاش، ويوفر لأفراد الأسرة حاجاتهم، ويعتبر ملكيته ملكيتهم المشتركة. ويدرك الزوج والزوجة فى أطفالهما التحقق الموضوعى لحبهما، الذى كان من قبل شعوراً ذاتيًا تجاه كل منهما للآخر. إنه ينبغى عليهما أن يربيا أطفالهما بحذر وفهم، ويمارسا الحزم عندما يكون الأطفال صغاراً فى

السن، ويحترما حقوقهم الكاملة من حيث إنهم أشخاص مستقلون عندما يصلون إلى سن النضج التام ويكونون على استعداد لأن يعولوا أنفسهم، ويكونوا أسرًا خاصة بهم. ويصر هيجل على أهمية الأسرة من حيث إنها مؤسسة أخلاقية فى مقابل شطحات الرومانسيين الذين كانوا يتعاطفون مع الارتباطات العارضة ومع الحب الحر غير المسئول.

ولكى يحافظ هيجل على تناسق الجدل، كان عليه أن يجد نقيض الموضوع للأسرة، الذى يستطيع أن يتآلف معها فى وحدة عليا هى الدولة. وهذا ما يطلق عليه اسم «المجتمع المدنى» (burgerliche Gesellschaft). أما الموضوع داخل المجتمع المدنى فهو نسق الحاجات system of wants، ذلك النسق الذى يتضمن ما نسميه بالنظام الاقتصادى، ويضم الطبقات الزراعية، والصناعية، والتجارية، والحاكمة. وينتمى الفرد إلى الطبقة التى يطمح إليها شريطة أن يكون مناسبًا لها؛ ولا يتحدد ذلك سلفًا بطريقة تعسفية عن طريق الميلاد (كما فى نظام الطبقات المغلقة فى الهند)، ولا يأمر به الحكام (كما هى الحال فى جمهورية أفلاطون). أما نقيض الموضوع فهو إدارة العدالة بين الأفراد والطبقات عن طريق قوانين تفسرها المحاكم بلغة مفهومة للمواطنين. أما المركب فهو يشمل رجال الشرطة الذين ينفذون أوامر المحاكم، والنقابات الإرادية التى يكون للأفراد الحرية فى تنظيمها لكى تدعم مصالحهم بطريقة تنسجم مع الرخاء العام.

وكان هيجل يحترم الدولة احترامًا كبيرًا من حيث إنها الفكرة الشاملة عن المثل الأعلى، ولأن الأخلاق تعالج المثل العليا، بمعنى ما ينبغى أن يكون وليس ما هو كائن، ولا ينبغى أن نلومه على ثنائه على الدولة بصورة لا تستحقها أى دولة قائمة بالفعل. فلقد عرف هيجل أن للدول القائمة بالفعل عيوبًا كثيرة، ومع ذلك كان متفائلًا حتى إنه كان يعتقد أنه حتى لو كان الأمر كذلك، فإنها شوهت مثلًا أعلى ليس غائبًا تمامًا، مثلما يكون الإنسان الدميم، والمجرم، والأعرج، والعاجز، بالرغم من ذلك أناسًا أحياء. ولا يصبح الفرد حرًا تمامًا، ويمتلك حقوقًا يمكن تحديدها على أساس عقلى والمحافظة عليها، إلا من حيث إنه مواطن فى الدولة. والدولة أكثر أهمية من الفرد. ومع ذلك لا يمكن الإدعاء بأن هيجل نقل نظريته العضوية فى الدولة إلى متطرفى المذهب الشمولى المعاصر. ويعلن هيجل أن الدولة الأكثر تطورًا، هى التى يكون دستورها ملكيًا، ويكون رئيسها فردًا واحدًا ينظم كل وظائفها. ومع ذلك، لا يكون الملك مستبدًا، لأنه يتصرف بناء على نصيحة وزرائه، ولا ينبغى عليه سوى أن يقول «نعم»، وبذلك يضع النقط على الحروف. ويبدو أن

هيجل كان فى ذهنه صورة ملك له وظائف تشبه إلى حد ما وظائف الملك الإنجليزى، الرأس البارز الذى تنفذ باسمه أعمال الحكومة.

ويلى الملك السلطة التنفيذية أو موظفو الدولة والسلطة التشريعية، ولا يؤمن هيجل بالنظرية الأمريكية فى الفصل الكامل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، ولكنه يفضل الممارسة البريطانية التى يكون بواسطتها للوزراء مقاعد فى البرلمان. ولا يحبذ حق التصويت العام؛ صحيح أن الحكومة تنفذ الإرادة العاقلة للأمة، لكن ذلك لا يمكن أن يتحقق عن طريق انتخاب شعبى تدلى فيه الجماهير الجاهلة بأصواتها. بل ينبغى أن تقود السلطة التنفيذية الرأى العام وتوجهه بدلًا من أن تخضع فتكون أداة سلبية لانفعالات شعبية طاغية فى لحظة ما. وعلى الرغم من أن هيجل لم يكن يريد بذلك معارضة التقدم، فإننا نستطيع أن نرى لماذا كانت آراؤه بوجه عام مقبولة بالنسبة للبيروقراطية الرجعية التى كانت مسيطرة على بروسيا بعد مؤتمر فينا، وكان يُخشى أنه يريد أن يكون تمامًا تحت رضا الحكومة. وهناك الكثير من آراء هيجل عن الدولة له قيمته، ويدين إلهام بعض من أعظم المفكرين البريطانيين فى الفلسفة السياسية لهيجل، كما توضح ذلك كتابات «توماس هل جرين» T. H. Green، و«برنارد بوزانكيت» B. Bosanquet. غير أن هيجل أصابهم بالإحباط فى معالجته للقانون الدولى. فلم يكن لديه أمل فى إمكان تأسيس سلطة دولية، أو ضمان سلام عالمى.

كل دولة ـ فى تفسير هيجل للتاريخ الكلى ـ تعبير عن فكرة تتجلى أثناء التطور فى شعب يسيطر ثم يفقد مكانته المرموقة بعد أن يؤدى رسالته. وتتجلى الفكرة المطلقة فى هذه السيطرة المتعاقبة للدول. إن «تاريخ العالم هو محكمة العالم». ويشير هيجل فى كتابه «فلسفة التاريخ» إلى ما يعتقد أنه مساهمة لكل شعب مهم فى التاريخ. وهذا الكتاب مثير بسبب الكم الهائل من المعلومات المفيدة والمعلومات المضللة التى جمعها هيجل معًا، وبينما يكون فكره موحيًا، بدرجة كبيرة، فإن الكتاب يميل بوجه عام إلى أن يجعل المؤرخين يشكون فى كفاءة الفيلسوف فى تفسير التاريخ تفسيرًا صحيحًا. ومع ذلك كثيرًا ما يُنصح المبتدئون فى دراسة فلسفة هيجل بقراءة هذا الكتاب، لأنه قراءة ممتعة، ويعرض المنهج الجدلى بوضوح، وهومليء بالأمثلة والشواهد.

لقد قمنا حتى الآن بإعادة عرض لتفسير هيجل لتقدم الفكرةالمطلقة: أولًا فى ذاتها من حيث إنها تتجلى فى مقولات المنطق، وثانيًا من حيث إنها تتخارج عن ذاتها فى الطبيعة

الفيزيائية، وثالثًا من حيث إنها تصبح واعية بذاتها فى ذاتها ولذاتها فى عمليات الروح الذاتى السيكولوجية، وتنكشف من حيث إنها روح موضوعية فى مؤسسات اجتماعية. وتبلغ ذروتها فى الروح المطلق، الذى نعى فيه الواقع بأسره فى وحدته العضوية وكماله. ويتم ذلك فى الفن عن طريق وسيط من صورة محسوسة من نوع ما، وفى الدين، نخبر وحدة البشرى مع الإلهى فى العبادة، أما فى الفلسفة، فينكشف المطلق فى تصورات التفكير الخالص. وثمة علاقة وثيقة للغاية بين تلك الإنجازات الثلاثة العليا للروح، التى يكتمل بها المذهب.

وتشع الحقيقة الواقعية (أى المطلق) فى الفن بوصفها جمالاً Beauty عن طريق وسيط محسوس، قد نتمثله مباشرة كما هى الحال فى تمثال، بناء، أو ألحان الموسيقى، أو فى خيال محسوس كما هى الحال فى الشعر. ولا يمكن أن نتعرف على الجمال فى طور أدنى من أطوار الطبيعة غير الحية (الجامدة) مثل كتلة من الحديد، وبصورة أقل فى نسق آلى مثل الشمس والكواكب. ويصبح الجمال أكثر وضوحًا فى النباتات، التى تكون فيها وحدة الأجزاء والكل غائية، ويصبح أكثر وضوحًا فى الحيوانات، ولا يزال أكثر وضوحًا فى الموجودات البشرية. ومع ذلك، فالإنسان يخلق صورًا من الجمال أكثر كفاية مما يجده قائمًا فى العالم حوله. إن الفن أسمى من الطبيعة. (وقد نعترض على هذا التأكيد، غير أن رؤية هيجل الفلسفية بأسرها تؤدى إلى تأكيدها).

ولما كان هدف الفن هو الكشف عن الدلالة الداخلية للواقع فى صور محسوسة، فإنه يكون باستمرار تفسيرًا أعلى وليس تقليدًا أعمى للطبيعة (فى معارضة أفلاطون فى محاورة «الجمهورية»). إن الفن ينقى الانفعالات، وله دلالة أخلاقية (ويتفق هيجل هنا مع أرسطو). ويجب ألا يكون هدف الفنان تعليميًا أو تهذيبًا أساسًا، وأن لا يهدف إلى شهرة شخصية ومكافآت مالية. بل ينبغى عليه أن يسعى إلى نقل فهم الحقيقة عن طريق صور محسوسة تكون لها فائدتها وقيمتها فى تقدير جمالى لذاته. ويوضح ذلك القيمة الفريدة للفن وتصوره النهائى إذا ما قورن بالدين والفلسفة(١١).

لكل عمل من الفن جانبان؛ مضمونه الروحى وتجسده المادى أو الصورة. يسود التجسيد المادى فى الفن الرمزى، بينما يسود المضمون الروحى فى الفن الرومانسى، ويكون هناك توازن تام بين التجسيد المادى والمضمون الروحى فى الفن الكلاسيكى.

لا يستطيع العقل البشرى أن يعبر تمامًا فى الفن الرمزى عن المضمون الروحى الذى

يحاول أن ينقله بواسطة التجسيد المادى، ولا يمكنه سوى أن يفترض معناه عن طريق رمز ما. وتوجد الأمثلة الفجة فى إبداعات الفن الهندى الذى يقدم مخلوقات هائلة ومشوهة تسعى، على سبيل المثال، إلى أن توحى بعظمة الآلهة، عن طريق جعل رؤسها، وأيديها، وأرجلها كثيرة. والفن المصرى أكثر تأثيراً فى رمزيته؛ فالمسلات تمثل أشعة الشمس، بينما يلفت أبو الهول الانتباه بطريقة مؤثرة إلى لغز الكون. ويصل الفن الرمزى إلى اضمحلاله فى الحكاية الخرافية، والشطحات، والحكايات القصيرة، وقصيدة الشعر الوصفية والتعليمية، التى لا تعبر أى منها تعبيراً صادقًا عن المضمون الروحى، بل تشير إليه فقط عن طريق الرموز.

وثمة توازن وانسجام بين المضمون والصورة فى الفن الكلاسيكى، الذى كان يعجب به هيجل إعجابًا كبيراً. فهنا ينظر إلى الفن فى أحسن حالاته على أنه فن. إن المضمون يكون عينيًا، وتكون الصورة كافية للتعبير عنه. فآلهة اليونان موجودات شخصية وفردية مثلنا، وكانت لدى النحات القدرة على أن يصورها فى جو من السعادة الهادئة والخالدة التى تتجسد فى صور مثالية تعبر عما كان مقصودًا تعبيراً كاملًا. ولم يكن الفن اليونانى، بالتأكيد، فنًا كلاسيكيًا تمامًا؛ لأن اليونان استخدموا الرمزية أحيانًا، وكثيراً ما كانوا رومانسيين فى شعرهم، وبصفة خاصة فى المسرحية. غير أن اليونان كانوا أكثر شهرة بإنجازاتهم فى الفن الكلاسيكى، الذى طوروه إلى أعلى كمال، بصفة خاصة فى النحت والآثار.

ويهيمن المضمون الروحى فى الفن الرومانسى، ولا تكفى صورة محسوسة للتعبير عنه تمامًا. ومن أمثلة هذا الفن الفروسية، بخصائصها الأساسية المتعلقة بالمجد، والحب، والولاء، والحب الرومانسى، واعترافه بالقيمة اللامتناهية لأشخاص آخرين. ولا توجد هذه الموضوعات فى الشعر الكلاسيكى الخالص، مثل شعر «هوميروس». ويسعى الفن الرومانسى إلى الكشف عن الروح، ليس فى الجلال الكلاسيكى الهادىء والسكون فحسب، وليس فى مغامرات الأبطال، بل فى صراعاته الداخلية، وآلامه، وانتصاراته القصوى. وآلام المسيح، ووفاته، وقيامته، وانتصارات الإيمان على المعاناة التى حققها القديسون والشهداء، هى من بين الموضوعات المفضلة للتصوير الرومانسى، والموسيقى، والشعر، وموضوعات العمارة القوطية أيضًا (التى ينظر إليها هيجل على أنها فن رومانسى). وطالما أنه لا يمكن لصورة محسوسة أن تنقل بصورة كافية حقائق روحية

عميقة، فإن الجدل ينتقل من الفن إلى نقيضه فى الدين. ولقد اهتم هيجل بالفنون الجميلة اهتمامًا كبيرًا، وكرس جهدًا كبيرًا لتقديم تفسير محكم لمغزاها الداخلى. وظل واحدًا من المفكرين البارزين فى تاريخ الاستاطيقا، ويعترف كثيرون ممن يميلون إلى رفض فلسفته فى الفن بأسرها، بأفكار ثاقبة وذات قيمة.

ويحتل الدين مكانة وسطًا بين الفن والفلسفة، فلم تعد الفكرة المطلقة متجلية فى صورة موضوع من موضوعات الحس، وإنْ كانت لا تزال لا تفهم مع ذلك فى صور عقلية خالصة. لأن مضمون الدين هو التمثل (Vorstellung)، الذى يكتسى فيه الفكر الخالص بتصوير من نوع ما. والفكرة الشائعة عن خلق الله للعالم هى ذلك التمثل. والحقيقة الفلسفية فى ذلك التمثل هى التحول من المنطق، أعنى الفكرة فى ذاتها، إلى الطبيعة، أعنى الفكرة فى تخارجها. ولم يرفض هيجل تمثل الدين من حيث إنه مجرد أوهام شعبية. فهو يرى فيها تجليات فعلية للمطلق، الذى يعبر عن الحقيقة بصورة كافية مثلما يستطيع العقل العادى أن يفهمها.

ويجد هيجل فى المسيحية، التى يطلق عليها اسم الديانة المطلقة، التمثل الأكثر كفاية للحقيقة الممكنة لدين ما. ويكون الله الأب هو المنطق؛ أى المقولات قبل أن تتخارج فى العالم؛ ويكون الله الأبن هو عالم الطبيعة؛ أما الروح القدس فيكون الواقع الذى يصبح واعيًا بذاته فى الروح، ويكون متمثلًا فى الكنيسة. وتظهر عقيدة التثليث فى صورة تمثل للحقيقة التى تذهب إلى أن المطلق يكون ثلاثة فى واحد؛ لأن المقولات المنطقية، والطبيعة، والروح تكون كلها معًا المطلق الواحد فى جانبه الثلاثى. ويشعر الإنسان عندما ينعزل عن المطلق بمواطن ضعفه ويصبح واعيًا بالخطيئة؛ ويجد عن طريق تجسد المسيح أن المطلق من حيث إنه الطبيعة (أى الأبن) أصبح إنسانًا، ويبلغ الوعى بالاتحاد بالله عن طريق العبادة. إن القيمةالعظيمة للدين المسيحى هى تمثلاتها التى تناظر الحقائق الأزلية للفلسفة (فلسفة هيجل). ولا ينبغى أن نشغل أنفسنا بالصحة التاريخية للمعجزات أو بأحداث أخرى يفترض أنها حدثت منذ ثمانية عشر قرنًا، فمهما كان ما قرره المؤرخون بشأن هذه الحقائق الأزلية فى نهاية الأمر، فإنها سوف تظل باقية ويحاول هيجل أن يبين أن المسيحية تمثل شعبى للحقائق النهائية فى فلسفته الخاصة، ومن الطبيعى أن يلجأ إليها القساوسة وآخرون ممن يرغبون فى أن يصبحوا هيجليين وأن يظلوا مع ذلك مسيحيين.

وقام هيجل بدراسة الأديان التاريخية الأخرى المتعددة بتعاطف، واعترف لكل منها بالفضل من حيث إنها تفسر طوراً من أطوار تقدم الجدل بصورة كبيرة أو صغيرة. ودرس أدب الدين المقارن الذى كان متاحًا آنذاك، وربما كان دقيقًا فى إشاراته إلى الديانات المختلفة بقدر ما كان مستطاعًا عندئذ. واهتم هيجل بالدين اهتمامًا كبيرًا، ووضعه فى مرتبة أعلى فى مذهبه من أى صورة أخرى من صور المعرفة باستثناء الفلسفة ذاتها. لقد اعتقد أنه يحتل مكانة جوهرية فى الحياة البشرية، وكان مقتنعًا بأن الإنسان يتحد عن طريقه بالإلهى.

والمركب النهائى فى مذهب هيجل هو الفلسفة، وعن طريقها يكتشف الإنسان المطلق فى كل مراحل الجدل. وعندما يفعل الإنسان ذلك، يصبح عاقلًا وواعيًا بذاته. ويُقدِّر مكانته فى كون عضوى وعقلى. ويصبح الكون بدوره واعيًا بذاته فى حياة الإنسان الثقافية. ويظل مذهب هيجل الفلسفة الأكثر شمولًا التى تم إنجازها فى العصور الحديثة.

٧ ـ خلفاء هيجل

دبت خلافات بعد وفاة هيجل مباشرة بين أتباعه بشأن ما إذا كان المطلق يمتلك وعيًا بالذات بمعزل عن تجليه فى الأرواح (العقول) البشرية أم لا، وما إذا كان الله يتجسد فى يسوع المسيح بأى معنى مختلف عن ذلك المعنى الذى يكون الله حاضرًا فيه عند جميع البشر أم لا، وعما إذا كان للناس خلود شخصى من حيث إنهم أفراد أم أن الروح المطلق هو وحده الخالد، وأسئلة أخرى على شاكلتها. وقد دبت هذه الخلافات بصفة خاصة فى مجال الدين. فقد دافع المحافظون ـ «اليمين الهيجلى» ـ عن أكثر هذه البدائل اعتدالًا وأصروا على أن المسيحية والفلسفة الهيجلية يتفقان اتفاقًا جوهريًا ويقدم كل منهما للآخر تأكيدًا متبادلًا. أما الجناح الرديكالى ـ «اليسار الهيجلى» أو «الهيجليون الشباب»، فقد أخذوا موقفًا معارضًا. فلما كانت الطبيعة تسبق الروح البشرية (العقل) فى النسق الهيجلى من الناحية المنطقية مال اليسار إلى أن ينظروا إلى الإنسان على أنه نتاج للطبيعة، واختلفوا كثيرًا أو قليلًا فى الاتجاه نحو المذهب المادى والإلحاد.

ويرى «ديفيد فرديدريش شتراوس D. F. Strauss (١٨٠٨ ـ ١٨٧٤) فى كتابه الشهير «حياة يسوع» (١٨٣٥)، الذى كان له تأثير فى النفوس فى ذلك الوقت، أنه ليس من الضرورى أن نفترض أن الأحداث المسجلة فى الكتاب المقدس إما أن تكون تاريخًا